صورة الحيوان في الشعر العربي القديم

منذ القدم ارتبط الإنسان بالحيوان، وعاش به ومعه، فإما متوحشا يخشى خطره ويهابه ويحتاط منه، وإما مستأنسا يربى لأغراض الطعام أو لاستخدامه في الزراعة أو الحراسة أو النقل أو الحرب .. وهذا الصنف المستأنس هو الذي آثره الإنسان بمحبته حتى بلغ درجة الوله والعبادة، فقد عبدت الشعوب القديمة الخيل والنوق والخراف والثيران باعتبارها آلهة، أو تجسيدا لصورة الإله المعبود، وكانت تقدّم في بعض الأحيان قربانا على مذابح المعابد تكريما للآلهة أو طلبا للمساعدة أو المباركة، ولا سيما في المناسبات الهامة والأحداث الكبرى في حياة الأفراد أو المجتمع ككل.

والإنسان السابق للإسلام في الجزيرة العربية لم يكن بدعا بين البشر حين عمد إلى تأمل بيئته وما يوجد فيها من حيوان، فلاحظ الإبل والبقر الوحشي والغزلان والنعام والضباع والذئاب .. فوصفها وتخيل لها قصصا وأساطير، وبنى في خياله لها صورة مثالية بحسب ما تصوّره عنها، فضرب المثل بالناقة في النبل، وبالفرس في الأنفة وكرم الخلق والعزة، وبالغزال في الجمال والرقي، وبالنعام في الخوف، وبالذئب في الوحدة والأنانية واحتمال الجوع، وبالبقر الوحشي في القوة والصلابة والمنعة.. وهكذا مع سائر أنواع الحيوانات.

وصف الناقة :

لا شك أنّ أهم حيوان نال اهتمام الناس ومن ثمة الشعراء هو حيوان الجمل، لا سيما أنثاه الناقة، لما لهذا الحيوان الصحراوي من أثر حاسم في حياتهم، فهو المطية المفضلة والمأمونة في الصحراء الجافة والقاسية، لما فطر عليه من خصائص عجيبة كالصبر والتحمل وقلة الحاجة للماء، فكانت تتخذ منه القوافل المحملة بالبضائع، وكان يستخدم في الحروب لشن الغارات، ومصدرا غنيا للحليب واللحم، وتتخذ من وبره الخيام والملابس، بل كان عملة ذلك العصر، فبه يتم دفع مهر العروس، وبه تقدّر ثروة الغني، وبه يجازى الشعراء، وبه تقدّم الفدية لأهل القتيل، أو لإطلاق سراح الأسير.

وقد تفنن شعراء الجاهلية في وصف نوقهم والتفاخر بمزاياها، وبالغوا في ذلك حتى جعلوها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، وحدث مع الناقة ما حدث مع المرأة، حيث تسرّبت إلى الشعر بعض الآثار والترسبات الدينية القديمة التي كانت تقدّس الناقة وتعتبرها آلهة. وعادة ما يكون وصف الناقة بعد الحديث عن الطلل والظعائن ، يقول زهير بن أبي سلمى:

فلما رأيت أنها لا تجيبني نهضتُ إلى وجناء كالفحل قردد

وللناقة أسماء كثيرة تبلغ العشرات كالجسرة، والعنس، والذعبلة، والذمول، والأدماء، والناجية، والأمون .. مما يدل على حبّ العربي لها وتعلقه بها، ولعل أبرز وأشهر ما وصلنا من شعر في وصف الناقة ما جاء في معلقة طرفة بن العبد التي مطلعها:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقد خصص الشاعر 28 بيتا لهذا الموضوع ابتداء من البيت 11 من معلقته:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمون كألواح الأران نصأتها على لاحب كأنه ظهر برجد
ترعي إلى صوت المهيب وتتقي بذي خصل روعات أكلف ملبد
تباري عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبد
لها مرفقان أفتلان كأنّها تمر بسلمي دالج متشدّد
وعينان كالماويتين استكنتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد
طحوران عوارا القذى فتراهما كمكحولتي مذعورة أم فرقد

ويمكن إيجاز وصف طرفة للناقة وفق الشكل التالي :

وصف مظهرها العام (11)
سرعتها (12-13)
عنايته بها في المرعى (14)
خلقها (15)
ذيلها كثير الحركة (16-17)
فخذاها تاما الخلق (18)
ظهرها قوي متراصف الفقرات (19)
صدرها عريض (20)

مرفقاها مفتولان قويان (21)
جوفها رحيب (22)
شعر لحييها ضارب بحمرة (23)
ويداها شديدتان وعضداها بارزان (24)
تسير بسرعة (25)
آثار الحبل ظاهرة على جسدها (26-27)
عنقها طويل مشرف (28)
جمجمتها كسندان الحداد (29)
الوجه عتيق أملس (30)
العينان صافيتان كماء المطر (31-32)
الأذنان حادتا السمع (33-34)
قلبها قوي كالصخر (35)
تتمتع بالمرونة وطواعيتها (36-37)
أنفها لين عتيق إذا قربته من الأرض زادت سرعتها (38)

وقد تبلغ علاقة البدوي بناقته حدا بعيدا من التكامل والتعاطف، حيث يخلع عليها صفات نفسية ويجعلها ذات مشاعر إنسانية ناطقة، يقول بشامة بن عمر :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوّه آهة الرّجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبدا وديني
أكل الدهر حل وارتحال أما يبقي عليّ ولا يقيني

وإلى ذلك يذهب الباحث سيّد نوفل حين يؤكد فكرة تقديس الحيوان عند العرب: "وهذا الإعزاز للحيوان قد يبلغ في بعض الحالات ضربا من التقديس مثل صنيعهم مع البحيرة والسائبة والحامي، فكانت الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وشقوها وامتنعوا عن نحرها وركوبها، وأباحوا لها الماء والمرعى وهي البحيرة، وإذا ولدت الناقة عشر إناث، تهمل ولا تركب ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها وهي السائبة، والحامي الفحل إذا أنتج عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر، حمي ظهره فلم يركب ولم يجز وبره وخليّ في إبله يضرب فيها، فهذه التقاليد تدل مع اختلاف في تفسيرها

على أنهم كانوا يرتفعون بالحيوان في أحوال خاصة إلى ضرب من التقديس يبيح له أعز ما لديهم وهو الماء والمرعى".

وقد أنكر القرآن الكريم هذا الضرب من التقديس للنوق، حيث ورد في سورة المائدة ـ 103 قوله تعالى: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) .